العرب
الإثنين 2021/08/09
السنة 44 العدد 12143

«رحلات إلى شواطئ النار» مغامرات صحافي في أماكن خطرة

الكتاب يجمع بين أدب الرحلات والسيرة الذاتية والسرد الصحافي

يشكّل أدب الرحلة محورا للكثير من الرسائل والأعمال الأدبية العربية التي تناولت تجارب أصحابها في السفر واكتشاف البلدان الأخرى، وكانت في الماضي تلك الإنتاجات الأدبية تمثل مصدرا هاما للمعلومات الجغرافية والتاريخية والسياسية، في مزيج بين الأدب والتوثيق، كما نجد في كتاب "رحلات إلى شواطئ النار" للكاتب الصحافي المصري حسين عبدالقادر.

مغامرات لتقصي الحقائق (لوحة للفنان باسم الإمام)

أيمن سعد مسلم

القاهرة – تتقاطع مفردات الدم والنار والموت والدمار، وتتشابك أدوار المحقق الصحافي والجندي ورجل المخابرات، وتتعانق الأيدي المخضبة بالدماء بتلك المعفرة بذرات الهيروين في عالم من الجريمة والصراع في كتاب "رحلات إلى شواطئ النار" للمصري حسين عبدالقادر.

ومثلما تتداخل عوالم السياسة والحكم وأجهزة الأمن والمخابرات وعصابات المافيا وتجار السلاح في فضاء يموج بالاضطرابات، يتنقل عبدالقادر بين شواطئ اللغة والتعبير معتمدا أسلوبا صحافيا سلسا بمفردات بسيطة تتبدل إيقاعاتها وفقا لسخونة الأحداث التي يسردها في قالب أدبي مشوق.

رحلات مثيرة

يقف الكتاب الذي يضم بين دفتيه 136 صفحة في منطقة خاصة بين أدب الرحلات والسير الذاتية والسرد الصحفي وكتابات الجريمة.

ويحقق الكتاب معادلة يسعى إلى ترسيخها أدب الرحلات، كنوع من الأدب الشامل الذي يصف فيه الكاتب مشاهداته وما صادفه في حله وترحاله، إذ يكتب عبدالقادر عن الإنسان وراء كل مكان يزوره وعن التجربة الإنسانية هناك وتعالقها بالسياسة وما عاشه من مغامرات في أماكن خطيرة ومثيرة. ويركز على إبراز صورة الآخر الذي نسمع عنه ولا نراه إلا من شاشات التلفاز.

كان عبدالقادر كمن يحاول أن يقبض على الجمر دون أن تحترق أصابعه في عالم يصفه في مقدمة الكتاب بأنه "يثير فضولي قبل مخاوفي" على جبهات قتال "لا أعرف حتى الآن كيف كُتبت لي النجاة فيها إلا أنه أمر ربي ومشيئته".

يستعرض الكاتب رحلاته من باكستان بعد تدمير السفارة المصرية في إسلام آباد والمقابلة التي أجراها مع رئيسة الوزراء بينظير بوتو التي قتلت بعد ذلك بسنوات، إلى سوريا في فترة المقاطعة العربية مع مصر بعد كامب ديفيد، ومنها إلى معايشة الواقع مع جماعة حزب الله اللبنانية في إحدى مواجهاتها مع إسرائيل، ورحلات أخرى في أفريقيا وأوروبا لتغطية خلافات سياسية وصراعات عسكرية يحولها الكاتب إلى سرد قصصي.

يبدأ الكاتب بذكريات رحلتين إلى إريتريا في تسعينات القرن الماضي والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين، وكيف تقمص في إحداهما دور رجل المخابرات كي يقف على حقيقة شائعة تسربت إليه "عن وصول قوات إسرائيلية للحرب بجانب إريتريا" ضد القوات الإثيوبية.

لا يخلو السرد العنيف الصاخب من لمسة إنسانية باكية عندما يتحدث عن أطفال الشوارع، ثمرة جرائم الاغتصاب في الحروب، وهي مأساة شاهدها بعينيه ورصدها بقلمه.

في آخر يوم من إحدى الرحلتين يصف لحظة تقشعر لها الأبدان. يقول "بعد الفجر مباشرة ومع أول تباشير الصباح كان السائق قد وصل بعد أن قضينا الليل نستحم عدة مرات لنغتسل من آثار دماء الجثث".

في الفصل الثاني يأخذنا إلى السودان "ما أجمل الخرطوم وأهلها الطيبين" هكذا قال قبل أن يصدمه صديق سوداني قديم ويحذره من أن كل مصري في السودان موضع اشتباه. سأله عن السبب فرد عليه "فتش عن المستفيد من تشرذم العرب".

في محطة تالية ثلاث زيارات للبنان كانت إحداها لتغطية مبادلة بين إسرائيل وحزب الله تضمنت تسليم أسرى مقابل رفات جنود إسرائيليين.

مغامرات الصحافيين

بين الحين والآخر، يحاول الكاتب تخفيف جرعة المرارة بمواقف ساخرة يرصدها وسط الأحداث المأساوية. يقول "أثناء الوقوف في الطابور حضرت صحافية تتميز بجمال غير عادي، اتجهت فورا إلى الشباك متخطية جميع الواقفين. لكن أحد الصحافيين الكبار وهو رئيس تحرير جريدة لبنانية يومية قال إنه، بناء على رغبة كل سيدات العالم في المساواة مع الرجل، يطالبها بالالتزام بدورها في الطابور".

في فصول تالية يتناول الكتاب زيارات لباكستان أجرى في إحداها مقابلة مع بينظير بوتو يقول إنها اعترفت فيها لأول مرة بامتلاك إسلام أباد سلاحا نوويا. بعدها يسرد تفاصيل زيارات إلى سوريا والأردن والسعودية وإيطاليا والنمسا وتونس وغيرها.

> بين الحين والآخر يحاول الكاتب تخفيف جرعة المرارة التي يسردها عبر مواقف ساخرة يرصدها وسط الأحداث المأساوية

يقول إنه خلال زيارته إلى سوريا، تمكن من الكشف عن شبكة لتهريب الهيروين لمصر بعد مقابلة مع أحد المسجونين المصريين في سجن المزة بدمشق.

في الفصل الثامن من روما إلى تونس.. يردد الكاتب المثل الشعبي "من حفر حفرة لأخيه وقع فيها"، ثم يعترف "نعم أنا حفرت حفرة لزملائي، ولكني لم أسقط في حفرة بل سقطت في بئر وكاد حبل المشنقة يلتف حول رقبتي.. ربما كان ذلك بسبب المقلب الذي دبرته لزملائي في مطار روما واستأثرت بطعامهم".

فبعد انتقاله إلى مطار قرطاج بتونس قبضت عليه السلطات لتطابق بياناته مع آخر محكوم عليه بالإعدام "ولولا اسم أمي لتم تسليمي إلى الإنتربول الدولي".

يسلط الكتاب الضوء على الدور الكبير الذي يلعبه الصحافيون وحجم التضحيات التي يقدمونها دون مقابل تقريبا إذ لا يمكن أن يكون هناك ثمن لحياة الإنسان. لكن جملة قصيرة في طيات الكتاب تلخص شعوره بالكامل "رغم ضخامة جسدي إلا أنني كنت سعيدا.. كنت أقفز وأتسلق المرتفعات".

نال الكاتب عددا من الجوائز من ضمنها الجائزة الأولى للتفوق الصحفي من نقابة الصحافيين المصرية، وأشهر مؤلفاته كتاب "مغامرات كولومبو في شارع الصحافة".

«افتح لمن لا يطرق على بابك» تأملات بيسوا من صومعة جيرونيموس

عمان – ضمن مجموعة بيسوا قدمت دار خطوط وظلال للنشر والتوزيع أخيرا كتابا بعنوان "افتح لمن لا يطرق على بابك" وهو عبارة عن شذرات للشاعر البرتغالي فرناندو بيسوا من ترجمة وتقديم إسكندر حبش.

تقدم الشذرات الجديدة لبيسوا تأملاته الفلسفية العميقة بروحها الشعرية العالية. فالإنسان في رأيه ليس سوى "حشرة تافهة تطنّ مصطدمة بزجاج النافذة، ذلك لأنه أعمى"، ويصعب عليه الدنو من الضوء. وحده الشاعر قادر على أن "يهشم الزجاج باتجاه الضوء".

مع ذلك فإن الشاعر نفسه "أعمى" لأنه يستحيل عليه بلوغ "الحقيقة الأبدية" كما يقول بيسوا. ووإصفا نفسه، يكتب قائلا "أنا شاعر مُحَفّز بالفلسفة، ولست فيلسوفا ذا مزايا شعرية". وهو "مفتّن بملاحظة جمال الأشياء وبرسم اللامرئي والمتناهي الصغر مما يميز الروح الشعرية للكون". وهذه الشعرية تكمن بالنسبة إليه في "الأرض التي لا تموت أبدا".

هل نستطيع، بعد، أن نتخطى فرناندو بيسوا؟ من منّا لم يقرأ له قصيدة، ولو مترجمة، وفي لغة غير لغته الأصل، البرتغالية؟ من منّا لم يقرأ مقالة عنه؟ حتى وإن لم نفعل ذلك، من منا لم يسمع بعد باسمه، أو لم يشاهد صورته على غلاف كتاب أو في جريدة وهو يتنزّه أو يحتسي كأسا في مقهاه المعتاد "البرازيلييرا" أو وهو شارد في البعيد يتأمل، كأنه يتأمل هذه "الحيوات" الكثيرة التي اخترعها.

هذا الرجل الذي "شدّ إبليس من ذيله" يرتاح اليوم في صومعة "جيرونيموس"، بين "كامويتش" و"فاسكو دي غاما". إنه هذا "اللشبوني" الذي كتب عن مدينته، الذي جعلها مثالية بعض الشيء، مثلما يجعل المرء والدته رمزا لهذه المثالية، يقول "أنا الشوارع الخلفية لمدينة غير موجودة، أنا التعليق المهذار لكتاب لم يكتبه أحد مطلقا".

الشعر عند بيسوا موجود في كل شيء؛ في "البرّ، والبحر، وعلى ضفة النهر". هو موجود أيضا في المدينة الكبيرة التي يكثر فيها ضجيج السيارات، وحركة الناس. كما يمكن أن يتجسّد في "حركة مبتذلة ومضحكة لصباغ في الناحية الأخرى من الشارع وهو يلوّن إعلانا لدكّان لحام". ثمة حاسة تهيمن على حواس بيسوا الخمس تجعله يشعر أنه مختلف عن باقي البشر. لذا هو يرى الشعر حتى في ما هو "تافه، ومُحْتَقَر، ومهمل"، بل هو يراه في "مفتاح، وفي مسمار في جدار، وفي دجاجة تعبر الطريق مقوقئة".

أصبح بيسوا في فضاء العقود الأخيرة أحد أكبر كتّاب العصر. هذا أقل ما يمكن أن نقوله عن هذا المصير، الذي لقيه بعد موته والذي يشهد على ذلك. يكفي أن نذكر بعض الأحداث: لم تُكتشف "مُخلّفات" بيسوا إلاّ في العام 1968 أي بعد أكثر من ثلاثين سنة على موته، أي لم تكتشف هذه "الحقيبة السحرية" حيث كان يراكم مخطوطاته (بالأحرى الكتب، إذ لم ينشر وهو على قيد الحياة إلاّ هذا الكتاب الصغير الذي أعطاه عنوان "رسالة" (1)، وهو عبارة عن "ملحمة وجدانية في مجد البرتغال"، ماضيا وحاضرا). أما الطبعة البرتغالية من "كتاب القلق" (2) فتعود فقط إلى العام 1982. في حين أن "فاوست"، وهو كتاب يُشكل أيضا إحدى قممه الأدبية، فلم ينشر في البرتغال إلا في العام 1982 أيضا.

تنقل بيسوا بين عدة مهن ليعيل نفسه. وجعله هذا يفهم الحياة بشكل أفضل، وبقي يتساءل في كل ما كتبه من شعر ونثر عن دوره ومعنى أنْ يعيش. وقد انعكست تجارب حياته في ما كتبه من شعر وقصص، اعتمد فيها كاتبها على عدة تقنيات، منها استخدام تداعي الأشياء والأفكار، وبناء الحبكة البوليسية، واستخدام الحوارات مع الذات والتعليقات وغيرها.

يفكك الشاعر في مشروعه الكتابي التأملي عناصر الحياة ليعيد تركيبها مثلما يحب ومثلما توحي له مخيلته. ليس ما يقدمه من شذرات هنا كتابا نثريا بالرغم من أنه كتبها بتقنية النثر، ولكنه بالتأكيد ليس شعرا خالصا لأنه لا يخلص إلى تقنية الشعر. غير أن الفكر الشعري هو خلاصة شذراته الأخيرة.

الشاعر يطل على العالم من شرفة الفلسفة

> بيسوا اللشبوني الذي كتب عن مدينته وجعلها مثالية بعض الشيء مثلما يجعل المرء والدته رمزا لهذه المثالية

هذا كتاب لا يكتبه إلا شاعر كبير. ربما قصد بيسوا أن يخبرنا ما الحياة. ربما أراد أن يهبنا درسا في الشعر الذي نعيشه من غير أن نقرأه. وهو ما دأب عليه في أشعاره التي تعتبر مرجعا حقيقيا للشعرية الإنسانية الحديثة.